أو يجهلون أنّ ما يستطيعه الفكر والخيال في حربها مع الحواسّ لتوسيع آفاقها وتبديد أوهامها لا تستطيعه الإرادة في حربها مع الغريزة لكبح جماحها والسموّ بها من القيم الحيوانيّة إلى الإنسانيّة. فسيّان عند الغريزة أكانت الأرض مسطّحة أم مستديرة، وسيّان عندها أمشت إلى غاياتها في الظلام أم في ضوء الكهرباء، وعلى الأرض أم في الهواء. وسيّان أكان الجماد بلا حياة أو كان يعجّ بالحياة. أمّا أن تصوم عن الطعام وهي جائعة والطعام موفور لديها، وأمّا أن تُصفع فتصفح، وأن تموت ليحيا غيرها، وأن تعفّ عن اللذّة الجنسيّة وشهوتها مشبوبة، وأن تقرّ بحقّ غير القوّة أمّا هذه الأمور وكثير من نوعها فلا تتعادل أبداً ولا يمكن أن تتعادل في ميزان الغريزة التي لا تعرف حقّاً إلّا القوّة البدنيّة، ولا دافعاً على العمل إلّا اللذّة الحسيّة، ولا ناهياً إلّا الخوف من الألم.

إنّ للفكر والخيال أجنحة. أمّا الإرادة فتزحف زحفاً وئيداً عند الأكثرية الساحقة من الناس. فأيّ عجب إذ ذاك في أن تعاني ما تعانيه من المضض في حربها مع الغريزة، وأن يكون تقدمها في الميدان بطيئاً إلى حدّ أنّه لا يكاد يكون محسوساً إلّا على مدى أجيال طوال، وإلّا في نخبة من الآدميين الذين تجنّحت إرادتهم فكانوا ـ وما